ملامح السرد في الأمثال الجاهلية

(قراءة في نماذج منتقاة)

تاريخ الإرسال: 2018/02/25

تاريخ القبول: 2018/03/27

د/ آمنة بن منصور

المركز الجامعي عين تموشنت

ietimad13@hotmail.fr

ملخص:

لقد بات من الضروري اليوم قراءة التراث العربي القديم وفق المناهج الحديثة والمعاصرة وبمعنى آخر لابد من البحث والتنقيب والتفتيش الجيد في تراثنا لاسيما ما تعلق منه بالجانب النثري، هذا الجانب الذي عانى التهميش من قبل الدارسين الأولين والآخرين، بالمقارنة مع اهتمام الدراسات والبحوث بشقيقه (الشعر)، إذ اكتفى جلها بالجمع والتبويب بدل الدراسة والتحليل، أما المثل فاكتفى الدارسون بتصنيفه ضمن نوادر العرب وحكمها وأيامها، دون محاولة الخوض فيه، وقد يبدو للكثيرين أن المثل بعيد عن السرد بمكوناته وخصائصه الحديثة، إلا أن نظرة متفحصة على هذا النوع من فنون القول يخالف الرأي السابق، ذلك أن المثل فضلا على أنه يخفي وراءه قصة بما تحويه من عناصر السرد المختلفة،بل إن فيه بوصفه تركيبا مفردا سمات سردية كما قدمنا، فإنه أيضا يعد وجها من أوجه تقنية الخطف خلفا، أو الاسترجاع الفني، ثم إن المثل قد يكون بمنزلة العنوان في القصة، وعلى العموم يبقى المثل شكلا من أشكال السرد في صوره البسيطة والعفوية التي هي بحاجة إلى استنباطها وتتبع مواضع الجمال والإبداع فيها.

الكلمات المفتاحية :

مثل، سرد، جاهلية، ملمح، خصائص.

Summary:

It is now necessary to read the ancient Arab heritage in accordance with modern and contemporary curricula. In other words, it is necessary to look good in our heritage, especially as it relates to the prose. But a close look at this type of art contradicts the previous opinion, because the example, as well as that it hides behind a story containing the elements of the narration of different, but it as a single compound narrative features as we provided, it also promises A facet of hijacking technique, or And then the ideals may be like the title in the story, and on the whole remains an example of a form of narration in its simple and spontaneous forms that need to be developed and follow the places of beauty and creativity in it.

Keywords: *Proverbs, Narration, Ignorance, Marker, Properties.*

تمهيد:

لكل أمة من الأمم أدب يحفظ أمجادها ويحكي تاريخها ويروي مثالبها، شفويا كان أم كتابيا، راقيا كان أم بدائيا، ويبدو أن تجربة السرد من أوائل التجارب التي خاضت فيها الشعوب، بدليل كثرة ووفرة ما وصل إلينا من الموروث الشعبي العالمي في صوره المختلفة، وأنماطه المتعددة، ناهيك عن الضائع منه، ونعني بذلك تلك الأمثال والحكايا والقصص والخرافات والأساطير.. التي تناقلتها الألسن جيلا عن جيل حتى وصلت إلى مرحلة التدوين فدونها الكتاب وحفظتها بطون الكتب. وأمة العرب كغيرها من الأمم تركت لنا سجلا حافلا بمختلف فنون القول، وإن كان الشعر هو الذي أخذ النصيب الأوفر من العناية والدراسة وظل لقرون المقصد والمبتغى، من العامة والخاصة على حد سواء.

لقد بات من الضروري اليوم قراءة التراث العربي القديم وفق المناهج الحديثة والمعاصرة وبمعنى آخر لابد من البحث والتنقيب والتفتيش الجيد في تراثنا لاسيما ما تعلق منه بالجانب النثري، هذا الجانب الذي عانى التهميش من قبل الدارسين الأولين والآخرين، بالمقارنة مع اهتمام الدراسات والبحوث بشقيقه (الشعر)، إذ اكتفى جلها بالجمع والتبويب بدل الدراسة والتحليل، وإن وجدت دراسات ما، فقد حظيت بها الفنون المعروفة كالقصة والمقامة والسير.. أما المثل فاكتفى الدارسون بتصنيفه ضمن نوادر العرب وحكمها وأيامها، دون محاولة الخوض فيه، حتى إنهم يطلقون على القصة الأصلية لقول المثل لفظة مورد، وهذه اللفظة بعيدة كل البعد عن مفهوم القصة والسرد، ولعل السبب راجع إلى تخوف النقاد والدارسين من الخوض في مثل هذه الفنون النثرية التي ظهرت في وقت مبكر وما زالت في نظر الكثيرين تحمل صبغة من السذاجة والعفوية، ولا ترقى لجعلها محل دراسة معمقة، ومع ذلك لا يؤخذ هذا الكلام على وجه التعميم فقد استأنسنا بدراسات حديثة تناولت المثل من جوانب مختلفة نذكر منها: كتاب

(سرد الأمثال، دراسة في البنية السردية لكتب الأمثال العربية لصاحبه: لؤي حمزة عباس)، وكتاب (الأمثال العربية والعصر الجاهلي لصاحبه: مُحَمَّد توفيق أبو علي).

ولأن موضوعنا المثل فلابد من التعريف به وبالفن الذي ينتمي إليه، قبل الولوج في باقي التفاصيل.

1- السرد والمثل: مفاهيم ومصطلحات

*- مفهوم السرد:

تعددت مفاهيم السرد في المعاجم العربية، ومرد ذلك إلى المقام الذي تستعمل فيه الكلمة، ففي المعنى اللغوي يعني الفعل سرد الحديث يسرده سردا إذا تابعه، وفلان يسرد الحديث سردا إذا كان جيد السياق له[1]، كما وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم في قوله تعالى: " وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ .أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"[2]، (وقدر في السرد) هذا إرشاد من الله تعالى لنبيه داود –عليه السلام– في تعليمه صنعة الدروع، قال مجاهد في قوله(وقدر في السرد) لا تدق المسمار فيقلق في الحلقة، ولا تغلظه فيفصمها، واجعله بقدر[3]، كما ترد لفظة السرد في مواضع أخرى، حسب السياق، بمعان غير المذكورة آنفا، وهذا راجع لتعدد اللهجات العربية من جهة، والاستعمالات المجازية للفظة من جهة ثانية.

أما اصطلاحا فيذهب بعض النقاد إلى تحميل لفظة سرد معنى التأثير في المتلقي، باعتبار أن كل عمل أدبي ينشد ذلك، وذهب فريق آخر إلى أن السرد هو " المفهوم الجامع لكل التجليات المتصلة بالعمل الروائي أو الحكائي"[4]، أما (فريدمان) فيرى أن السرد هو بث الصورة بواسطة اللغة وتحويل ذلك إلى إنجاز سردي خياليا كان أم حقيقيا[5].

*- مفهوم المثل:

كلمة مثل مأخوذة من قولنا: "هذا مثله وشبهه.. والمماثلة لا تكون إلا في المتفقين.. ومثل الشيء صفته.. والمثل مأخوذ من المثال والحذو.. وفي التنزيل العزيز: "يا أيّها الناسُ ضُربَ مثلٌ فاسْتمِعُوا لَه"[6].. وقد يكون المثل بمعنى العبرة .."[7]، إلى غير ذلك من التعريفات المعجمية التي لا تختلف كثيرا فيما بينها، أما في كتب التراث فسنقف على المعنى نفسه الموجود في معاجم اللغة، مع فارق طفيف يعود إلى الغربلة التي تفضي إلى خروج مادة (مثل) من أفق اللغة إلى مدى الاصطلاح[8]، فابن المقفع مثلا يرى أن الكلام إذا جاء في صيغة مثل كان أوضح للمنطق[9]، وينظر ابن عبد ربه إلى الأمثال نظرة جمالية محضة، فهي "وشي الكلام وجوهر اللفظ وجلي المعاني.. هي أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة "[10]، أما أول من حاول إعطاء مفهوم دقيق للمثل بعيدا عن العموميات المطلقة فهو الفارابي بقوله: "المثل ما تراضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه، حتى ابتذلوه فيما بينهم، وفاهوا به في السراء والضراء.. وهو من أبلغ الحكمة لأن الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة "[11].

وجوهر القول إن المثل كلام موجز جميل، يحتوي على سرد دون تفصيل، يرتبط أول مرة بمورد أصلي أو حادث أو قصة وقعت، ثم يجري على الألسنة ويضرب كلما وقع ما يحاكي ويشبه مورده الأول.

2- السرد عند العرب:

مارس العرب السرد والحكي منذ القديم، شأنهم في ذلك شأن الأمم الأخرى، وقد توفرت "نصوصه المندرجة ضمن أنواع وأجناس سردية مختلفة كالأخبار والنوادر والحكايات والأمثال والمسامرات وسواها"[12]، إلا أنه لم يلق كبير اهتمام من قبل النقاد والدارسين إلا في وقت متأخر بعد أن أثبتت الدراسات الحديثة أن "القصص أو الموروث الحكائي العربي غني ومهم ويستدعي

البحث والدراسة"[13]، بعيدا عن الأحكام المسبقة من قبيل أن "هناك ديوانا واحدا تركه العرب هو الشعر، وما عداه من الأنواع والفنون فلا يرقى إلى الشعر"[14]، إذ لا يخفى ما كان لهذا الأخير، من سطوة وحُظوة لزمن غير يسير، على حساب الفنون النثرية المختلفة، التي يُعزى سبب انتكاستها وتراجعها إلى "الشفاهية التي رافقت أوليات الأدب العربي وتحكمت في إنتاج الثقافة العربية، فالنثر –وهو القسم الشقيق للشعر في حاضنة الأدب– لم يتيسر له الانتشار والنفوذ لما يتطلبه من هيئة كتابية ليس فقط في تدوينه ولكن أيضا في تأليفه"[15].

ومع هذا فقد استطاع العربي أن يبدع "على مدى عصور طويلة نصوصا في منتهى البراعة والحس والجمال، ولقد وصل العديد منها إلى العالمية، وصار إنتاجا إنساني البعد والنزعة وعلى درجة سامية من الإبداع الإنساني الرفيع، وظل هذا الإنتاج يتزايد عبر الحقب والعصور وسجل لنا العرب من خلاله مختلف صور حياتهم وأنماطها.. وما خلفته من آثار في المخيلة والوجدان[16]، بل إن مجرد "التصريح بوجود أنواع قصصية رئيسية أو أعمال حكائية مكتملة من قبل دارسي السرد المعاصرين، يقتضي، منطقيا، توفر الثقافة العربية في مرحلة مبكرة من مراحل تكونها على أنواع ثانوية، غير مكتملة، بمنظور البنى اللاحقة وحيوية مكوناتها، تتشكل فيها الخصائص السردية تشكلا بسيطا لا ينفصل في حضوره وآلية تنظيم عناصره عن آليات معطيات عصره، وسياقاته الثقافية "[17]، والمثل أحد هذه الأنواع، يجب معاينة نصه وملاحظة خصائصه السردية.

3- الأمثال في المنظومة العربية الجاهلية:

لا تعدم أمة من الأمم قاموسا جامعا لأمثالها، يصور نمط عيشها ومثالبها، وقد عني العرب "بالأمثال عناية قل نظيرها، فقد أقحموها في كل ميادينهم تقريبا، فكان لكل ضرب من ضروب حياتهم مثل يلهج به، وبلغت عناية

اللغويين مدى مميزا عن سواهم، لأن المثل بالنسبة إليهم كان يجسد اللغة الصافية إلى حد كبير"[18]، فهو يجمع بين الدقة والإيجاز وحسن التعبير[*]، فضلا على العبرة التي يتضمنها وإلى جانب ذلك كله يحكي قصة وقعت ذات يوم.

ثم إنّ الباحث في الأمثال سيقف أمام موقفين متناقضين:

– الموقف الأول : يعمد إلى طرد (الأمثال) من النثر الفني العربي، ويلحق دراساتها بنمط الدراسات (الفيلولوجية) للغة.. ويعدها مقياسا لدرس الجملة القصيرة كيف تتكون، ومقياسا بنوع خاص لعبث الشعوب بالألفاظ والمعاني..

– الموقف الثاني: يهتم (بالأمثال) بوصفها نمطا من أنماط النثر المتميزة في الجاهلية، ويعدها مصدرا من مصادر دراسة الأدب الجاهلي لا سيما النثري منه"[19].

ولعل الموقف الثاني هو الأقرب إلى المنطق والموضوعية، إذ كيف يعقل اعتبار المثل نوعا من عبث الشعوب بالكلمات، وهي إنما ضربتها لموقف حدث بالفعل، ولم تكن مهيأة له حتى تزوق العبارة وتنمقها.

أضف إليه أن الأمثال ليست كلها سيان، وليست كلها على درجة واحدة من البلاغة والرقي، إذا علمنا أن الشعبية طغت على جل الأمثال الجاهلية، ويقصد بالشعبية "تلك التي تختلف في مصادرها وعلة نشوئها عن الأمثال الذهنية النابعة عن الشعر أو أمثال القرآن الكريم "[20]، دون أن نغفل جانبا مهما يتمثل في الخرافة التي كان لها نصيب في الأمثال، بل إن حضورها هو من الأهمية بمكان، "لا بوصفها نوعا قصصيا بل بما تساعد في إقامته من أنواع قصصية تتحرف بمروياتها عن قول الحقيقة لتنشغل بالخيالي والمتوهم من الحكايات والأخبار.. وربما حفلت صيغ الأمثال بالعناية في المدونات والكتب المبكرة

بسبب من ارتباطها بقصة تحمل من سمات الخرافة وأصدائها ما يجعل منها مادة مناسبة للأسمار"[21].

"مثل الأمثال الواردة في قصة الزباء ومنها: لا يطاع لقصير أمر، ولأمر ما جدع قصير أنفه – بيدي لا بيد عمرو. وكذلك الأمثال الواردة في قصة ثأر امرئ القيس لأبيه ومنها:

ضيعني صغيرا وحملني ثأره كبيرا – لا صحو اليوم ولا سكر غدا – اليوم خمر وغدا أمر"[22].

ولعلنا نستشف بعض الخصائص السردية التي ميزت وطبعت الأمثال الجاهلية في المبحث التالي.

4- ملامح السرد في المثل الجاهلي:

بداية لا بد من التنويه والتنبيه إلى أن مسألة نسب بعض الأمثال إلى الجاهلية مسألة نسبية لا قطعية، ويؤخذ بها على وجه التقريب لا اليقين، ومن الأمور التي استأنس بها النقاد والدارسون للفصل بين الأمثال الجاهلية والإسلامية بعض الأمارات التي قد تحيل على عصرها بشكل أو بآخر؛ كذكر الخمر والتطير والتشاؤم والثأر.. وغيرها من الإشارات التي تدل على البيئة الجاهلية.

ومن الملاحظ أن دارسي الأمثال اهتموا بحسن صياغتها وجمال ديباجتها ودقة تعبيرها، أكثر من اهتمامهم بالقصة أو الحدث أو المورد الذي قيلت فيه أول مرة، فهذا أمر ثانوي في نظرهم[23]، إلى جانب هذا فقد اختلفوا، كما نوهنا سابقا، بين من يعد المثل صالحا للدرس اللغوي، وبين من يعده فنا نثريا راقيا، إلا أن المنطق هنا يستدعي دراسة المثل بالنظر إلى صياغته ونصه معا، فقصة المثل تُعتمد في "دراسة النظام الأدبي الذي يختص بتشخيص محمول المثل والتمثيل له تمثيلا قصصيا يعنى بتتبع الأخبار وتقصيها، وتتوفر فيه من العناصر ما تؤهله للإسهام

بكشف أوليات التشكيل السردي لهذا الضرب من فنون الأدب في الثقافة العربية، فهو باعتماده الشخصية ركنا وبانطوائه على السرد والوصف والحوار، وبملاحظته فضاء الحدث بدرجات تتناسب مع نظر عصور إنتاجه، يعمل على تنظيم عناصره تنظيما لا يشذ عن وعي الثقافة العربية للقص عموما بوصفه استعراضا لأحداث ماضية كلاما، وقد تكون الحوادث تاريخية أو مختلفة أو مزيجا منهما"[24].

وقد حرصت أغلب كتب الأمثال القديمة، وأشهرها كتاب الأمثال للمفضل الضبي، على تقديم الأمثال بشكل سردي معتمدة، أي كتب الأمثال، في ذلك على خطوات ثلاث هي: الاستهلال، الوصل والفصل والخاتمة[25]، ولا يخفى علينا أن عرض المثل مفردا يجرده من خاصيته السردية، إذ يجب التقديم له كما فعل جامعو الأمثال عبر العصور.

فمن أسرار الأمثال أنها تبقى صالحة لكل زمان ومكان ولا يجب تغيير أو تحوير صيغتها، وذلك أنها ذات صبغة حكائية ولها خلفية سردية، وفي هذا يقول أبو هلال العسكري: "الأمثال تُحكى، يعنون بذلك أنها تضرب على ما جاء عن العرب، ولا تغير صيغتها، فتقول (الصيف ضيعتَ اللبن)، فتكسر التاء لأنها حكاية"[26]، من الواضح من كلام العسكري أن الدارسين القدامى لاحظوا السمة السردية للمثل ولم يجردوه من خصوصيته تلك، بل إن كتب الأمثال جميعها لا تذكر المثل إلا وتذكر قصته معه.

و"إذا توجهنا للنظر إلى موقع صيغة الاستهلال (زعموا أن) كما وردت في كتاب (المفضل الضبي)، وكما انتظمت في سلسلة الأمثال العربية.. تبينا الأهمية التاريخية لها فضلا عن سماتها البنيوية ودورها واسطة بين حلقات"[27]، كما قد يرد الاستهلال بطرق وصيغ أخرى، كالجمل الاستفتاحية من قبيل: أول من.. وفي هذا الجدول عرض لنماذج منه أوردتها بعض كتب الأمثال المعروفة[**]:

صيغة المثل	الاستهلال
القول ما قالت حذام	حذام هي بنت الريان..
خلا لك الجو فبيضي واصفري	أول من قال (خلا لك الجو)..
لا مخبأ لعطر بعد عروس	إن عروسا لرجل من العرب..
سبق السيف العذل	أول من قال (سبق السيف العذل)..
إحدى حظيات لقمان	كان عمرو بن تقن قد طلق امرأة..

ومهما اختلفت وتباينت طرق الاستهلال للمثل، تبقى صيغة (زعموا أن) الأقرب إلى خصائص القصة، فهي تؤدي "منذ البدء دور راو غير معين، تتسع المسافة بينه وبين ما يروى[28]، وفي كتب الأمثال شواهد ونماذج كثيرة عن طرق وصيغ الاستهلال يضيق المقام بذكرها جميعا.

ومن خلال اطلاعنا على عدد غير يسير من الأمثال، وجدنا بعضها يستفز المتلقي لمعرفة قصتها، وبعضها الآخر يشبه الحكمة، فهي خالية من أية ملامح سردية، وليست هذه التي تهمنا ولا موضوع دراستنا، وإنما غرضنا تسليط الضوء على الأمثال ذات الطابع السردي الحكائي عبارة ومضمونا، أو لنقل إن هدفنا استنباط الخصائص السردية من المثل كخطوة أولى قبل العودة إلى قصته الأصلية.

ومن أبرز عناصر السرد التي تظهر جليا في الأمثال بوصفها عبارة مفردة: الشخصيات، الفكرة، الحدث، الزمان والمكان، وسنمثل لذلك ببعض الشواهد:

الشخصيات:

تعد الشخصية من أهم عناصر النص السردي والحكائي، إذ لا يمكن بأي حال أن يخلو نص قصصي منها، وقد حفلت الأمثال الجاهلية بذكر شخوصها

وأبطالها، تارة تصرح بأسمائها، خاصة في باب التعريض والمدح والذم، وتارة تكتفي بتوظيف ضمائر تعود عليها وتنوب عنها، ومنها قولهم: "أتتك بحائن رجلاه"، فهذا المثل يضم شخصيتين أو بطلين للقصة؛ أما ضمير المخاطب فيوحي بطرف آخر تلقى المثل أول مرة، وأما السارد فيمثله ضمير الغائب (الهاء)، وقد ذكرت كتب الأمثال قصتين لهذا المثل نكتفي بذكر واحدة منها، وهي أن "عبيد بن الأبرص عرض يوما إلى النعمان بن المنذر في يوم بؤسه، وكان قصده ليمدحه.. فلما انتهى إليه قال له النعمان: ما جاء بك يا عبيد؟ فأجاب، بعد أن علم أن قدومه صادف يوم بؤس الملك، :"أتتك بحائن رجلاه"[29].

وكذلك قولهم "إياك أعني واسمعي يا جارة"، فمن الواضح جدا أن المثل يحمل بين طياته قصة ما، نستدل على ذلك بأسلوب الاختصاص الذي استعمله المتكلم (إياك) بما يوحي بوجود مستمع خصه بالكلام على وجه التلميح وتلك عادة عند العرب، وتعود قصة هذا المثل إلى أن سهل بن مالك الفزاري.. خرج يريد النعمان، فمر بأحد أحياء طيىء فنزل عند أحدهم، ووقع في نفسه من امرأة هناك شيء، فلم يعرف كيف يحدثها ويبثها ما في صدره، فجلس في الخباء وأنشد شعرا وهي تسمع، فعرفت أنها المعنية بكلامه..إلى آخر القصة[30]، ومن الأمثال التي توحي بوجود قصة من ورائها تلك الأمثال التي أطلقت باسم أبطالها من أسماء العلم، أو لنقل باسم الشخصية البطلة فيها، ومنها قولهم" بينهم عطر منشم"، وهذا مثل يضرب في التشاؤم ليس اشتقاقا من كلمة (منشم) ولكن صادف ذلك انطباق المثل على صاحبه اسما ومعنى، وقصته أن"منشِتم-بكسر الشين- اسم امرأة عطارة كانت بمكة، وكانت خزاعة وجرهم إذا أرادوا القتال تطيبوا من طيبها، وإذا فعلوا ذلك كثرت القتلى فيما بينهم، فكان يقال: أشأم من عطر منشِتم"[31]، ومنها أيضا قولهم: "أبصر من زرقاء اليمامة"، وقصتها معروفة وهي أن امرأة من اليمامة كنيتها زرقاء، كانت تبصر

الشيء من مسيرة ثلاثة أيام، فحدث أن هجم على قومها أعداء لهم وقد تخفوا في شكل شجر، فلما رأتهم أخبرت قومها بما رأت، فلم يصدقها أحد حتى هجم أعداءهم وقضوا عليهم[32]، ومن الأمثال التي تضمنت أسماء أبطالها قولهم: "وافق شن طبقة"، وملخصها أن رجلا من دهاة العرب (شن) أقسم أن لا يتزوج إلا امرأة توافق طباعه ، فحدث أن التقى رجلا فرافقه حتى بيته وسأله في أمور فعجز إلى أن أجابت ابنته (طبقة) عنه فتزوجها[33]، ومنها أيضا قول العرب: "أعز من كُليب وائل"، ووائل هذا كان سيد قومه، فكان كلما مر بضيعة أعجبته ألقى فيه كُليب، فلا يسمع عواء ذلك الكُليب أحد فيقرب ذاك الموضع، ثم إن كُليب غلب على اسم صاحبه فقيل:أعز من كُليب[34]، ومنها قولهم: "ولو بقرطي مارية"، ومارية هذه أم الحارث الأعرج ملك غسان، ذات حسب ونسب ويضرب بها المثل في الشيء العزيز الذي لا يقدر عليه[35].

الحدث: من الأمثال ما يحمل طابع الحدث في القصة، مستعينا في ذلك بحمولة من الأفعال الماضية كقولهم: "أنجز حر ما وعد"[36]، فالفعل (أنجز، وعد) يوحي بحدث وقع وترتب عنه حدث آخر، وكذلك قولهم: "أسرع من نكاح أم خارجة"، وأم خارجة هذه كانت كثيرة الزواج كثيرة الإنجاب[37]، فاسم التفضيل (أسرع) يوحي بتتابع الأحداث وسرعتها وكثرتها، وكذلك قولهم: "ولو غير ذات سوار لطمتني"[38]، فصيغة (ولو)، والفعل(لطمتني) يوحي بفعل وردّ فعل أو بحدث ونتيجته، وقولهم: "أجشع من أسرى الدخان، وذلك أن قوما كانوا في حرب، فدعاهم أحد أعدائهم إلى الطعام بعد أن أشعل النار وارتفع الدخان، فلبوا النداء ووقعوا في الأسر نتيجة طمعهم وجشعهم"[39]، فالمثل حدثٌ في ذاته؛ وقد ورد في شكل متتالية: جشع-أسر-دخان، بمعنى أن الجشع أدى إلى الأسر والوسيلة هي الدخان، وأيضا قالوا: "محا السيف ما قال ابن دارة أجمعا"[40]، فالفعل (محا) هو نتيجة للفعل (ما قال)، وانظر إلى قولهم: "أحشفا

وسوء كيلة"[41]، هذا المثل يتضمن استفهاما يحيل على أكثر من حدث ترتب عنه، وقالوا أيضا: "إن أخي كان مَلكي"[42]، وملخص هذا المثل أن رجلا أراد الثأر لأخيه من قاتله الذي كان من أسياد القوم فلما عيره بالسوقة أجابه بالمثل آنف الذكر، والشاهد هنا في المتتالية: أخي-كان-مَلكي، فالأول (أخي) سبب ولكن صار أثرا بعد عين (كان)، إلا أن منزلته عظيمة (مَلكي)، ولهذا يترتب عنه أخذ الثأر له وإن عظم الجاني.

الفكرة:

لا نبالغ إذا قلنا إن المثل، بوصفه تركيبا مستقلا عن مورده، هو نفسه الفكرة، باعتباره الهدف والمغزى من القصة الأولى التي حصلت، فإذا كان القاص أو السارد ينشد هدفا ما، ويتوخى إيصال رسالة معينة إلى المتلقي، فإن المثل أحسن ما يعبر عن ذلك، ومنها على سبيل المثال قولهم: "حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق"[43]، فكرة هذا المثل أن لا يطلب المرء أكثر من حاجته، وأن يقنع بالقليل دون الكثير، ومنها قولهم: "حُبَّ إلى عبد محكده"[44]، والمحكد الأصل، بمعنى أن كل إنسان يحن ويعود إلى أصله وإن دنى، كما قالوا: "ما جُعل عبد كربّه"[45]، يقصدون أن الفرع لا يعلو على الأصل أبدا، ومنها قولهم: "إلى أمه يلهف اللهفان" في إشارة إلى استعانة الرجل بأهله، وكذلك قولهم: "أم فرشت فأنامت" يضرب في بر الرجل بصاحبه تشبيها بمنزلة الأم لعظمتها، وأيضا قالوا: "إذا عز أخوك فهن"[46]، والمثل واضح في الدعوة إلى اللين والرفق بين الإخوة والأصحاب. وقالوا: "ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل"[47]، يلمحون إلى أن المظهر أحيانا لا يعكس الجوهر، فلا تؤخذ الأشياء بما يظهر منها ولكن بكنهها، كما قالوا: "إذا كنت في قوم فاحلب في إنائهم"[48]، وفكرة هذا المثل أن يلتزم المرء بعادات وأعراف القوم الذين ينزل عندهم ويحترمها، وقالوا أيضا: "أكلتم تمري وعصيتم أمري"[49]، يريدون الرجل ينكر الخير ويكفر العشير، ومن الأمثال الطريفة قولهم:

"إذا تفرقت الغنم قادتها العنز الجرباء"[50]، في إشارة إلى أن الجماعة التي تتفرق، ولا تجد أو تتفق على قائد لها، تصبح مباحة للسفهاء من الناس.

كما وقفنا على أمثال كثيرة تحكي نفسها بنفسها، لاسيما تلك التي تمدح خُلقا، أو تذم آخر، ومنها قولهم: "أبخل من مادر"[51]، و:"أجود من حاتم"[52] و:"مواعيد عرقوب وفي رواية أخلف من عرقوب"[53].

الزمان والمكان: إن الدراسة التفصيلة لبنية الزمان والمكان وأنواعهما في ضوء الأمثال قد لا تفضي إلى شيء معين أو نتيجة ملموسة، بالنظر إلى قصر تركيب المثل الذي لا يتجاوز الكلمتين أحيانا، ولهذا سنكتفي بذكر الأمثال التي تضمنت لفظ الزمان والمكان تصريحا، وندع ما دون ذلك لقصة المثل فهي تعج بالأزمنة والأمكنة.

لقد حفلت الأمثال الجاهلية بذكر الزمان في صوره البسيطة أو الفيزيائية كالليل والصبح والنهار.. ومنها قولهم: "إن مع اليوم غدايا مُسعدة"[54]، و"إذا سمعت بسرى القين فاعلم أنه مصبح"[55]، وقالوا: "ذهب أمس بما فيه"[56]..

ولكن الذي لفت انتباهنا حقا، هو ذكر الليل وتفاصيله مرات عدة، ولعل السبب يعود إلى توجس العرب منه خيفة، فالليل في المنظور الجاهلي يحمل ثيمات الحزن والرحيل والمكر، وهو رمز الظلم والظلام والغدر.. انظر إلى قولهم: "أمر نهار قضي ليلا"[57]، و"إن الليل طويل وأنت مقمر"[58]، و"أهلك والليل"[59]، و"أخو الظلماء أعشى بالليل"[60].. وإلى جانب هذا وقفنا على أمثال ذكرت العرب فيها أشهرا بعينها، دونا عن سواها، وفي أكثر من مناسبة، وهو شهر رجب الذي له حرمة ومكانة عند العرب فكانوا لا يتقاتلون فيه ولا يغيرون ولا يظلمون تعظيما له، وجاء الإسلام فأبقى على حرمة هذا الشهر، يقول تعالى في محكم تنزيله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ

اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾[61]، ورجب هو الشهر الرابع من الأشهر الحرم، ومن جملة تلك الأمثال قولهم: "عش رجبا تر عجبا"[62]، وقولهم: "العجب كل العجب بين جمادى ورجب"[63]، وحقا لا نعلم أجمعت العرب بين رجب والعجب لتوافق السجعة، أم أن هذا الشهر يحمل بعدا عجائبيا عندها؟

وأما المكان فكان حاضرا في الأمثال العربية، وهو الآخر يحمل طابعا من التخوف والحرص والترقب، إذ تكاد تنحصر الأمكنة في المخيلة العربية في الفضاء الشاسع، والصحراء والبيداء والوادي، ومن ذلك قولهم:"أنت كبارح الأروى"[64]، والبارح هو الفضاء الذي لا جبل فيه ولا تل، وكقولهم: "إنه الليل وأضواج الوادي"[65]، وأيضا قالوا:"إياك وصحراء الإهالة"[66].

خاتمة:

وبعد، فقد يبدو للكثيرين أن المثل بعيد عن السّرد بمكوناته وخصائصه الحديثة، إلا أن نظرة متفحصة على هذا النوع من فنون القول يخالف الرأي السّابق، ذلك أن المثل فضلا على أنه يخفي وراءه قصّة بما تحويه من عناصر السّرد المختلفة، بل إن فيه بوصفه تركيبا مفردا سمات سردية كما قدمنا، فإنه أيضا يعد وجها من أوجه تقنية الخطف خلفا، أو الاسترجاع الفني، فإذا كانت القصة الحديثة تخرج عن المألوف القديم ببدء الأحداث من نهايتها، فإن المثل أيضا يبدأ القصة من آخرها، فلا يخفى علينا أن المثل آخر ما يقال في قصته الأولى التي ارتبط بها، ومتى ضرب لاحقا عند تشابه المواقف استدعى الرجوع إلى الخلف لمعرفة سبب قوله، ثم إن المثل قد يكون بمنزلة العنوان في القصة، وعلى العموم يبقى المثل شكلا من أشكال السرد في صوره البسيطة والعفوية التي هي بحاجة إلى استنباطها وتتبع مواضع الجمال والإبداع فيها.

هوامش البحث :

1- ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (سرد)، مج6، تح: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003، ص233.

2- سورة سبأ: الآيتان 10-11.

3- ينظر: أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير: تفسير ابن كثير، تح سامي بن مُحَمَّد السلامة، دار طيبة، ط2، 1999، مجلد 6، صفحة 498.

4- مولاي بوخاتم: مصطلحات النقد العربي السيميائي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2005، ص 252.

5- ينظر: عبد المالك مرتاض: في نظرية الرواية، عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص256.

6- سورة مُحَمَّد: الآية 15.

7- ابن منظور: لسان العرب، مادة مثل 610/11 وما بعدها. بيروت دار صادر.

8- ينظر: مُحَمَّد توفيق أبو علي: الأمثال العربية والعصر الجاهلي دراسة وتحليل ص33.

9- ينظر: ابن المقفع: الأدب الصغير، تح: أحمد زكي، مطبعة مُحَمَّد علي الصناعية، 1911. ص2830.

10- أحمد بن مُحَمَّد ابن عبد ربه: العقد الفريد ، تح: العريان، دار الفكر، بيروت، 2/3

11- إسحاق بن إبراهيم الفارابي: ديوان الأدب، تح: أحمد مختار عمر، القاهرة، 1947، 74/1.

12-مُحَمَّد مسالتي: السرد العربي القديم وآفاق التأويل، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، 2013. ص95.

13- سعيد يقطين: السرد العربي مفاهيم وتجليات، الدار العربية للعلوم لبنان، دار الأمان الرباط، منشورات الاختلاف الجزائر، ط2، 2012، ص59.

14- م ن، ص 60.

15- مُحَمَّد مسالتي: السرد العربي القديم وآفاق التأويل: ص95.

16- سعيد يقطين: السرد العربي مفاهيم وتجليات: ص61

17- لؤي حمزة عباس: سرد الأمثال، دراسة في البنية السردية لكتب الأمثال العربية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003، ص18.

18- مُحَمَّد توفيق أبو علي: الأمثال العربية والعصر الجاهلي، دار النفائس، لبنان، ط1، 1988، ص31.

*- قال النظام : "يجتمع في المثل أربعة لا يجتمع في غيره من الكلام إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكتابة فهو نهاية البلاغة"- مُحَمَّد عبد المنعم خفاجي: الأدب الجاهلي- دار الكتاب، ص 145 .

19- لؤي حمزة عباس: سرد الأمثال: ص 19

20- م ن :21

21- م ن : 23

22- مُحَمَّد سيد سلطان: الأمثال في الأدب الجاهلي، موقع ديوان العرب، نوفمبر 2005. www.diwanalarab.com

23- ينظر: لؤي حمزة عباس: سرد الأمثال: ص24

24- م ن: ص28

25- ينظر م ن: ص 46-47

26- المفضل الضبي: الفاخر في الأمثال: ص14.

27-م ن: ص 48

**- مثل كتب علاقة الكلابي، عبيد بن شرية الجرهمي..

28- ينظر: لؤي حمزة عباس: سرد الأمثال: ص48-49

29- سليمان بن صالح الخراشي: المنتقى من أمثال العرب وقصصهم، دار القاسم، الرياض، ط1، 2007: ص10

30- ينظر: نفسه: 18-19

31- م ن: 30

32- ينظر: م ن: 32

33- ينظر: المفضل الضبي: الفاخر في الأمثال، تقديم: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، لبنان، طبعة1، 2011، ص87

34- ينظر: م ن: ص 124

35- ينظر: م ن: 135

36- م ن: 98

37- م ن: 97-98

38- محمد توفيق أبو علي: الأمثال العربية والعصر الجاهلي: ص68

39- ينظر: أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الملقب بالميداني: مجمع الأمثال، مؤسسة الطباعة والنشر التابعة للأستانة الرضوية، إيران، ج1، ص196.

40- م ن: ج2، ص233.

41- م ن: ج1، ص216 .

42- م ن: ج1، ص 45

43- سليمان بن صالح الخراشي: المنتقى من أمثال العرب وقصصهم: ص51

44- ينظر: الميداني: مجمع الأمثال: ج1، ص208

45- ينظر: م ن: ج2، ص229.

46- ينظر: م ن : ج1، ص24

47- م ن: ج1، ص144

48- م ن: ج1، ص64.

49- م ن: ج1، ص71 .

50- م ن: ج1، ص91 .

51- م ن: ج1، ص118.

52- م ن: ج1، ص191.

53- م ن: ج2، ص267-268.

54- م ن: ج1، ص33.

55- م ن: ج1، ص42.

56- م ن: ج1، ص256.

57- الميداني: مجمع الأمثال: ج1، ص33.

58- م ن: ج1، ص 54.

59- م ن:ج1، ص ن.

60- م ن: ج1، ص58.

61- سورة التوبة: 36.

62- م ن: ج1، ص71.

63- سليمان بن صالح الخراشي: المنتقى من أمثال العرب وقصصهم: 114-115.

64- الميداني: مجمع الأمثال: ج2، ص24.

65- م ن: ج1، ص79.

66- م ن: ج1، ص80.